مدلولات السخرية في الأدب

بشير.بي.تي، أستاذ مساعد، كلية أم إي أس، ممباد

د. مجيب الرحمان.كى، أستاذ مساعد، الكلية الجديدة،تشناي

ملخص

السخرية كانت ولا تزال مكونة أساسية في الأجناس الأدبية ابتداء من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث حيث لها أبعاد متباينة في توظيف الأغراض الأدبية المتنوعة. هذه الدراسة تتطرق إلى مدلولات السخرية التي تتم مداولتها في الأدب بشكل عام لغة واصطلاحا.

تعد السخرية ميزة من مميزات الأعمال الأدبية منذ العصور القديمة، كيف لا والسخرية قد رافقت وجود الإنسان، واقترنت بأفعاله وتصرفاته، فضلاً عن أقواله، ولعلّ الأعمال الأدبية التي تتميز بهذه السمة، تعد من الأعمال الجليلة، كما أن الأدباء الساخرين هم في الحقيقة قّلة قليلة فالسخرية الحّقة، التي تقوم بفعل النقد والتقويم، لا تتأّتى لأي كان من الأدباء والكّتاب لأنها مهمة صعبة محفوفة بالمخاطر، فلا يجرؤ على خوض غمارها إّلا كاتب مقتدر، يستطيع أن يخفي ما يبديه في الآن نفسه، ويستطيع أن يحمي نفسه بفضل تعدد الدلالة الذي تنطوي عليه عباراته وألفاظه الساخرة.

يعد فن السخرية فنا له أصوله وقواعده الكتابية، فمن حيث المضمون يتسع الأدب الساخر لنقد أي موضوع من مواضيع الحياة العامة والخاصة، مثل (السياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها)، حيث ترتفع غاية السخرية إلى اصطياد المفارقة في الموقف، واستخدام النقائض والمفارقات والمتضادات، فقد يضحك من الألم حين يصل الجرح أقصى مداه، ويصل الأمر إلى تضخيم العيوب وجوانب الضعف التي يسخر منها الساخر بلغة تهكمية لاذعة.

السخرية فن أدبي له أساليبه وطرقه ، بل هي واقع تعبيري بين أفراد المجتمع ارتبطت بألفاظ كثيرة تحمل مدلولاته، فقد وردت لها في المعاجم العربية معان مختلفة أحيانا ومتداخلة أحيانا أخرى، ولم تحاول التفريق بينهما بدقة فتركت المعنى العام يشمل السخرية والاستهزاء والتهكم بدون تعريف يقر به من الأذهان واختلاف الدراسات في مجال السخرية أدى إلى مدلولات متعددة ومصطلحات خاصة عند بعض الباحثين، فقد ارتبطت بالغضب الهجاء و الذم

الضحك والتندر والدعابة والتفكه، والنكتة، والحسرة والهزء والاستخفاف ، والتصوير الكاريكاتوري[1]

وتعتبر السخرية من المفاهيم التي يصعب تحديدها عند الباحث، سواء في اللّغة العربية أو في الثقافة الغربية، ففي اللغة مثلا نجد أن مفهوم السخرية يتداخل مع مفهوم الهجاء، والفكاهة والتهكم... وكذلك في الثقافة الغربية ظلّ المفهوم يختلف مدلوله من عصر لآخر، ومن بلد إلى آخر، بل حتى بين ناقد وآخر، لذلك بدا للباحث أن يتطرق إلى مفهوم السخرية لغة واصطلاحا مدلولاته في المعجم الأدبي بشكل مختصر حتى تتضح بين أيدينا معانيها .

- **مفهوم السّخرية لغة**

"يقول ابن منظور في كتابه" لسان العرب "في تعريفه للسّخرية" :سخر "و "يسخر منه و"به سخرا "و"سخرا "و "مسخرا "سخرا "و "سخرة " و"سخربا "و"سخرية : "أي هزئ به[2] " وكما وردت كلمة السّخرية في قاموس المحيط : سخر منه، وبه كفوح سخرا وسخرا وسخرة ومسخرا وسخرا هزئ، كاستسخر كمنعه(بالكسر)ويضمّ كلفه مالا يريد وقهره وهو

سخرة لي، ورجل سخره كهمزة يسخر من النّاس.

كما وردت السّخرية في القرآن الكريم في عدّة مواضيع:

.قال الله تعالى" :فيسخرونا منهم، سخر الله منهم، ولهم عذاب أليم2 " وقال تعالى " : ويصنع الفلك، وتكلّما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه، قال إنتسخروا منّا فانّا وسخروا منكم كما تسخرون[3]، وقد وردت السّخرية في القرآن الكريم بألفاظ الهزء والاستخفاف والضّحك والسّخريةكقوله تعالى " : قل أبا الله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون[4] وقال أيضا " ولقد استهزىء برسل من قبلك، فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوبه يستهزئون[5] 1 "وقال أيضا" : و إذا ناديتم إلى الصّلاة، اتّخذوها هزوا ولعبا2

"فالمفهوم اللّغوي للسّخرية أخذ عدّة معاني مختلفة، تشترك في الهزء والضحك والسّخرية. السّخرية مشتقّة من مادة(س خ ر) وأصل السّخرية من التسخير والتدليل. وجاء في لسان سخرته أي قهرته وذلته وسخره تسخيرا، كفله عملا بلا أجر. وكل مقهور مدبر لا يملك ما يخلص من القهر فذلك سخر وتسخرت دابته وتسخرت دابة فلان، أي ركبها بغير أجر وأصل الماء في المعجم يدور حول اللين من الناحية الصوتية سواء كان الحرفان (س خ) متواليين مثل" سخا "تدور حول لين طبع من السخاوي

---

[1]) قدرية خوازم، السخرية في الشعر الشعبي بوادي سوف، رسالة جامعية، ص:5

[2]) ابن منظور، لسان العرب، الجزء1 ، دار الكتب العلمية، ط1 ، بيروت، 1413هـ 1993 -م، ص585

[3]) الآية 38 من سورة هود.

[4])الآية 65 من سورة التوبة.

[5]) الآية 58 من سورة المائدة

الأرض لنبه التراب السخراء الأرض الواسعة ومن هنا لا تبين أن الحرفين (س خ) في كلمة سخر يوحيانبالليين(لتذليل) والخفاء وعدم الإبانة بطريقة مباشرة فالحرفان ساخ يعبران عند الين التراوت والخبث والدهاء، والاسم الثاني لسخرته هو سخر منه، سخر سخرا السخرية هي الاستهزاء والاستخفاف ويقال سخر منه وبه، أي استخف بالشيء[1]"

وفي المعاجم الحديثة جاء تعريف السخرية بصورة عامة على أنها" نوع من الهزئ قوامه الامتناع عن إسباغ المعنى الواقعي كله على الكلمات والإيحاء عن طريق الأسلوب وإلقاء الكلام[2] بعكس ما يقال، وتتركز على طريقة في طرح الأسئلة مع التظاهر بالجهل وقول شيء فيمعرض آخر". وعرّفها سعيد علوش قائلا:" تتمثل السخرية في منهج جدلي يعتمد على الاستفهام بمفهومه البلاغي إذ تعتبر طريقة في توليد الثنائية والتعلم على البعد المعرفي".

من هذا المنطلق، تبدو لنا صعوبة تحديد مصطلح السخرية تحديداً جامعاً مانعاً، والسبب في ذلك يعود "إلى اختلاط مفهوم هذا المصطلح بمفاهيم ومصطلحات أخرى ، مثل: الفكاهة والضحك والتهكم والهجاء والكوميديا، فالسخرية لا يمكن أن تكون هي النكتة أو المزاح ولا هي التهكم ولا الهجاء ذاته ولا هي الفكاهة وحدها، بل هي شيء أسمى من ذلك، إنها: رد الإنسان الأعظم على معاكسة القدر، وظلم الدهر، وقسوة الطبيعة أو عيوب المجتمع، ونقائص الناس، وهو يسخر من هذه جميعا، ولا يسبها ولا يحقد عليها، بل يتأملها بهدوء ويبصر سخافتها وتناقضها وتفاهتها وصغرها، فيعلو عليها جميعا ويتحدث عنها بابتسامة هادئة جميلة مستخفة هازئة، وينبغي أن لا يكون حديثه سيئ اللفظ بذيئا، ولا يكون محتدا ثائرا وإلا كان ساخرا ، فالسخر هو الهدوء التام، والأدب التام، والعلو التام عن مصائب الدنيا[3].

إن الصورة الهجائية التي تقدّمها السخرية هي الصورة القبيحة والسلبية للحياة، فتصوّر معايب المجتمعات، ومفاسدها، وحقائقها المرة بإغراق شديد، لتظهر خصائصها وميزاتها بشكل أكثر وضوحا، وليتجلّي التناقض العميق بين الوضع الموجود. وهكذا يجادل قلم الساخر كلّ قديم ميت متأخّر وكلّ ما يمنع عن التقدّم والرّقي دون عفو وإغماض. إن السخرية توقظ الناس من سباتهم العميق، وتقدّم تعريفًا عن طرف الصراع الذِي أصيب بسهام غضب

[1]) ابن منظور ، لسان العرب، ص:1992

[2])محمد إبراهيم عبد القادر ربيع، السخرية في شعر جرير، رسالة جامعية، ص:14

[3]) محمد إبراهيم عبد القادر ربيع، السخرية في شعر جرير، رسالة جامعية، ص:20

الساخر؛ لأن الغاية الكبرى من السخرية، تحقيق الوعي وإيجاد اليقظة[1].

- **مفهوم السخرية اصطلاحا**

"ومن خلال دلالة المعجمية لكلمة" سخرية " يمكننا القول أنه القهر والتذليل وإخضاع الأخر وهو تجريح تصوير الإنسان تصويرا مضحكا بواسطة التشويه أو تفخيم العيوب الجسمية والعقلية، وتأتي مرادفة للشعور بالأفضلية والنظر إلى الآخر نظرة دونية وقد نهى الإسلام عنها.

"وعدا ذلك فقد بقيت السخرية مرتبطة بالمحادثات اليومية تحملا معنى نفسه كونها مصدر الانفعال الضحك جعلها تصنف ضمن الأساليب الفكاهية كالهزل والنكتة، فالإنسان الذي لا يملك حسن الدعابة والفكاهة يوصف بالعبوس، وبذلك تدل على سعة المستوى الثقافي لساخر الذي يعتمد وسائط متعددة بعيد الدلالة موازنا بين العناصر اللسانية والوجدانية [2] "كما يقول الجاحظ":للضحك موضع وله مقدار، فالناس لم يعيبوا الضحك إلا بقدر ولم يعيبوا المزح إلا بقدر[3]"

ومن المهم إدراك أن السخرية وقبل أن تكون موضوعا أدبياً ونقدياً هي في الأصل "انفعال نفسي يتشكل في وجدان الإنسان، وحالة قلبية تظهر مشاعر المنفعل، وتتبلور على شكل حركات في وجهه، أو جوارحه، أو تتجسد كلمات وجملاً على لسانه" ولهذا نجد من الصعب تعريفها تعريفاً جامعاً مانعاً، لصلتها الشديدة بمعنى الانفعال والذي يعتبر متجدداً ومتغيراً ولإرتباطها بوشائج عميقة مع مصطلحات أدبية أخرى كالفكاهة والتهكم والتندر، وهي أيضا ميول عدوانية يكون مفعولها قوياً وشجاعاً واستثنائياً. وعليه يمكن القول بأن السخرية من أكثر الظواهر تشبثاً بالبنية الإجتماعية لأنها تعطي الساخر صفة المتحدث الرسمي للمجتمع وتمنحه الضوء الأخضر ليشرع سهامه في نقد من يميلون عن الجادة، إذ يمكن أن نقول أن السخرية خير مرآة تنعكس عل يها أحوال المجتمع وأحوال الواقع، وبعبارة أخرى فإن الهزل في الفن هو إنعكاس للهزل في الحياة . إذ أنها،- السخرية- تعتبر من الفنون الواقعية التي لا تعرف التجرد ولا تعيش في الأبراج العاجية"بل تنهض بوظيفة المصحح الإجتماعي، بما تقوم به من نقد بّناء، وترسيخ لقيم العدالة، وذلك عن

---

[1]) المرجع نفسه: ص:28

[2]) بركو وهيبة، رابحي ليلة، جماليات السخرية في أعمال رضا حوحو أنموذجا، أطروحة جامعية، ص:15

[3]) رياض لفسان أغا، فن السخرية في الأدب، حسين كمالي مجلة الفكر، الاثنين 11 يونيو2007
www .dz.nead.net

طريق الإنتقاص من القيم السلبية في المجتمع، فهي إذا بديل مستساغ للعقاب.[1]

"وممن تناولوا السخرية بالتعريف عبد الحليم حفني، يقول : السخرية أسلوب أو سلاح عدائي مهما كانت دوافعها ومهما مقامها ومهما صغرت درجتها وكبرت ويتميز عن غيره من أساليب الأداء بأنه مصوغ بروح الفكاهة وأسلوبها. وليست السخرية عدائية دائما بل تكون توجيهية أو نقدية تقويمية أو تنفيرية من سلوك أو عادةسيئة، أما أن تكون عدائية مهما كان مقامها أو دوافعها فأمر لا يستقيم هكذا على إطلاقه إلا إن كنا نقصد أنها كذلك من وجهة نظر المسخور منه فربما"[2].

- **السخرية في المعجم الأدبي[3]**

وبالعودة إلى المعجم الأدبي، نجد أن السخرية عرفت بأنه

ا: "نوع من الهزء، قوامه الإمتناع عن إسباغ المعنى الواقعي أو الحقيقي على الكلمات، والإيحاء عن طريق الأسلوب وإلقاء الكلام بعكس ما يقال، وتركزت عن طريق طرح الأسئلة مع التظاهر بالجهل، وقول شئ في معرض شئ آخر وفي المعجم المفصل في الأدب: "هي نوع من الأسلوب الهازئ الذي لا يستخدم فيه الأسلوب الجدي، أو المعنى الواقعي؛ بعضه أو كّله، بأن يتبع المتكلم طريقة في عرض الحديث بعكس ما يمكن أن يقال، وهو أسلوب شائع بين العامة والأدباء على حد سواء.

ومع هذا التنوع في الدلالات، إلا أن اهتمامنا في هذا المقام ينصب في اتجاه السخرية الأدبية، وتحديداً أسلوب الكلام والنثر، فقد ذهب بعض الدارسين إلى أن السخرية:"طريقة من طرق التعبير، يستخدم فيها الشخص ألفاظاً تقلب المعنى إلى عكس ما يقصده المتكلم، وهي صورة من صور الفكاهة تعرض السلوك المعوج التي إن فطن اليها وعرفها فنان موهوب تمام المعرفة، وأحسن عرضها، تكون حينئذ في يده سلاحاً مميتاً" ومنهم من رأى أنها طريقة في الكلام يعبر بها الشخص عن عكس ما يقصده بالفعل، وأيضا الهزء بشئ ما، لا ينسجم مع القناعة العقلية، ولا يستقيم مع المفاهيم المنتظمة في عرف الفرد والجماعة، وبشكل عام فهي :كل نثر يهدف في أساسه إلى الإصلاح والتقويم، عن طريق النقد للأفعال الخارجة عما هو حسن، ويكون أحياناً مسبباً للإضحاك.

ويمكن إرجاع أسباب السخرية إلى عاملين أساسيين، بتفريعات كثيرة ومتداخلة، العامل الأول له علاقة بذات الساخر؛ فقد يكون شعوره بالتفوق على مجتمعه يورثه تعالياً يجعل

---

[1])عبير إسماعيل زارع هديب، السخرية في قصص فخري قعوار، رسالة جامعية، ص:8

[2] شعيب بن أحمد بن محمد عبد الرحمة الغزالي، أساليب السخرية في البلاغة العربية: دراسة تحليلية تطبيقية، رسالة جامعية، ص:10)

[3]) عبير إسماعيل زارع هديب، السخرية في قصص فخري قعوار، رسالة جامعية، ص:9

الأخرين - في نظره- أدنى منه منزلة، وقد يكون شعوراً بالحرمان ناتج عن نقص خُلقي، وربما كان الدافع الألم، والسخرية مثنفسه، وقد يكون محاولة لإبراز القدرة على التمكن من ناصية الإبداع.

أما العامل الثاني، وهو العامل الأقوى، الذي يتبناه البحث، فهو إجتماعي، يدور حول المتناقضات الإجتماعية سواء أكانت في الأخلاق التي تخرج عن الوصف السليم ، أم العادات التي تتعلق بالمجتمع بوصفه مجموعة أفراد، فإذا اتصف المجتمع بذلك، فإنه سيحفز المبدعين من أبنائه لانتقاده بهدف إعادة التوازن إليه، ولعل العوامل الإجتماعية هي أقوى الدوافع على الإطلاق، فهنا يأتي دور الأديب الساخر، الذي يلجأ إلى إبراز عيوب المجتمع، ونقائص الناس، وهويسخر بها جميعا، ولا يسبها، ولا يحقد عليها، بل يتأملها بهدوء، ويبصر سخافتها، وتناقضها، فيعلو عليها، ويتحدث عنها بابتسامة هادئة جليلة هازئة، فالسخر هو الهدوء التام والعلو التام، ومن هنا يبدو المعنى الإصطلاحي أقرب للمعنى الذي ننشده في هذا البحث، إذ هو وثيق الصلة بالمعنى الأدبي والنقدي، ومن قبله بالنفس والوجدان.

خاتمة

وأخيرا يمكن القول، أن السخرية قد استوظفت في الأدب بأشكالها المختلفة من عصر إلى عصر، ولا يخلو أي كتابة إلا وفيها إشارات توجهية ونقدية وهي نفسها تعتبرجزءا من أجزاء السخرية.

الإحالات

1. حضرة ناصف، السخرية في نصر الأندلس: رسالة التوابع والزوابع لإبن الشهيد الأندلسي أنموذجا، جامعة محمد البوضياف بالمسيلة، 2017
2. عمرو زلير، الحركة النقدية حول كتاب طه حسين" في الأدب الجاهلي" قسم اللغة العربية، كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر ابن يوسف ابن خدة، 2007-2008.
3. زينبة جواد، وسهيلة طراريست، تجليات السخرية في القصة العربية المعاصر بين زكريا تامر والسعيد بوتاجي أنموذجا، جامعة عبد الرحمان ميرة،2013-2014.
4. عبير إسماعيل زارع هديب، السخرية في قصص فخري قعوار، جامعة عرش ،كلية الآداب، 2016.